اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القباني

الإسكندرية

الفكر الإسلامي بين الابتداع والإبداع

دكتور
محمد أحمد عبد القادر
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتر ـ الأزاريطة ـ الاسكندرية
تليفون : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله »

صدق الله العظيم
الأنعام — ١٥٣

مقدمة

الفكر الاسلامى كأى فكر يتخذ مسارات متعددة فى سبيل أداء (رسالته) والوصول الى الغاية التى قام من أجلها • وعندما أقول ان الفكر الاسلامى كأى فكر بهذا الصدد فانني أعنى بذلك أن فى هذا الفكر عموميـــة يشبه من خـــلالها غيره ، كما أن فيه خصوصية يختلف بها عما سواه • أما بالنسبة للعمومية فان كل فكر ابان نشأته تشغله قضـــية أو عدة قضايا تنضوى تحت (غاية) أو (هدف) معين ، ولكن يحدث احيانا أنه فى سبيل بلوغ تلك الغاية أو السعى الى ذلك الهدف أن تتعدد السبل ، أو لنقل تتعرج بمـــا يتهدد معه سلامة (المقصد) ووحدة المذهب •

ان سياق الفكر الفلسفى على امتداده شاهد على زوال مذاهب واستمرار أخرى ، وشاهد أيضا على أن استمرارا ظل نقيا خالصا كما حدد له من قبر بينما ظر استمرار آخر محرفا مشوبا بالخلط والتشويش •

أما الخصوصية فى فكرنا الاسلامى فهى أنه (اسلامى) وكونه اسلاميا يضفى عليه طـــابعا دينيا والا قلنا عنه انه فكر عربى • فالعروبة هنا كجنس لا تصبغ هذا الفكر بطابعها بقدر ماصـــبغه الاسلام كدين • هو اذن (فكر دينى) ان أردنا أو لم نرد ، وكونه فكرا دينيا يفرض بطبيعته تساؤلات وحساسيات • أما من جانب الحساسيات التى يثيرها مثل هذا الفكر هو أنه يمت بصلة وثيقة لهذا الدين ولم لا وقد تشرف بحمل اسمه وانتسب اليه (فكر اسلامى) ويفرض مثل هذا الانتماء بالضرورة واقعا مؤداه أن لا انفصال بين (الدين) و (الفكر) • ان الباحث فى مجال الفكر الاسلامى يجد

نفسه منساقا الى الخوض فى بعض المسائل الدينية وهو مستغرق فى سياق الفكر منشغل بقضاياه • وان اجتهد أن ينحى مسائل الفكر جانبا وأن يقصيها عن مجال الدين • وهنا تكمن الحساسية أو لنقل الخطورة حيث يمتزج الدين بعقائده على الفكر بقضاياه ، فلا تكاد تحدد عن أى تتحدث حين تتحدث • ومن هنا تأتى هذه الدراسة التى بين أيدينا لتلقى الضوء على ذلك التزاوج بين الدين والفكر متسائلين لاول وهلة : وهل هناك تعارض بين الدين والفكر ؟ أليس ثمة فكر فى الدين ؟

ان الهدف من دراستنا هذه هو الصلة بين الدين والفكر من خلال بعدى • (الابتداع والابداع) •

ومن ناحية أخرى فان انحراف الفكر المجرد يجعل منه فكرا حاد قليلا أو كثيرا عن هدفه ، أما انحراف الفكر الدينى فجد خطير يجاوز فى خطورته الخطأ الى الخطيئة • أو لنقل بعبارة أخرى ان معيار الحكم على الفكر المنفصل عن الدين يكون من خلال مقولة (الصواب والخطأ) أما معيار الحكم على الفكر الدينى (كالفكر الاسلامى) انما يكون من خلال مقولة (الايمان والكفر) ، ولعل البون بينهما شاسع •

وانطلاقا من قضية الابتداع والابداع بهذا المعنى الذى أردت توضيحه يمكننى أن أتعرض لبعض المسائل الفرعية فى اطار هذه (القضية الكبرى) • ومن هنا يمكننى أن أطرح عدة تساؤلات نعل فى هذا البحث ما يجيب عنها ويزيل استفهامها :

— كيف يبدأ الفكر وكيف يمكن أن يستمر نقيا خالصا من أية تأثيرات سلبية تعوق مسيرته وتضلل مساره ؟

— ما هو الفكر (الخارج) وما هى معايير خروجه وما السبيل الى (اقامته) ان (اعوج) ؟

— هل من الابتداع ما هو ابداع ؟

— ما هى الصلة بين كل من الابتداع — الاتباع — الابداع •

هذه وغيرها تساؤلات تفرض نفسها على سياق البحث وتعطى مؤشرا يدل على وجهة البحث وغرضه • ونناقش فى هذه الدراسة هذين البعدين فى الفكر الاسلامى : الابتداع والابداع من خلال بعض النماذج الممثلة لهذا البعد وأخرى ممثلة لذاك البعد وينقسم تناولنا لهذه الدراسة الى قسمين نناقش فى القسم الاول منهما نماذج من الفكر الاسلامى مبتدعا محاولين بيان أوجه ذلك الابتداع وتحديد عناصره ، ثم نردف ذلك فى القسم الثانى بمناقشة الفكر الاسلامى مبدعا متعرضين لاهم مظاهر الابداع من خلال النماذج التى سنتناولها بعد كل هذا نعقب بخاتمة للبحث نضمنها أهم الملاحظات والنتائج التى انتهت اليها هذه الدراسة •

عن معنى الابتداع .. النشأة والتطور :

البدعة فى الدين هى مالم يشرعه الله ورسوله ، وهو مالم يأمر به أمر ايجاب ولا استحباب . فأما ما أمر به ايجاب أو استحباب وعلم الامر به بالادلة الشرعية فهو من الدين الذى شرعه الله تعالى: ولهذا كان عمر بن عبد العزيز يقول « سن رسول الله ﷺ سننا ، الاخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ليس لاحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها وأتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » (١) .

واذا أردنا أن نحدد معنى الابتداع لغة فانه يتداخل — للصلة اللغوية — مع معنى الابداع ، وأبدع الشىء اخترعه وأنشأه على غير مثال سابق ، وابتدع أتى بالبدعة وهى الحدث فى الدين بعد الاكمال (٢) . وذلك مثل قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » (الحديد — ٢٧) .

معنى ذلك أن (الابتداع) أمر طارىء أو هو بالاحرى زيادة أو (تزيد) على أمور سبق أن وجدت ثم أدخلت عليها زيادات . وهنا نريد أن نستوضح بعض المسائل حتى نكون على بينة من أمرنا منذ البداية :

— هل كل أمر موجود ثم دخل عليه تعديل ما أو زيادةما يعد ذلك ابتداعا ؟

---

(١) انظر ابن تيمية : نقض المنطق ص ٩١ دار الكتب العلمية . بيروت .
(٢) انظر ، مختار الصحاح ص ٤٣ .

الحقيقة أن تحديد (الاصل) هو الاساس الذى يترتب عليه ما اذا كانت الزيادة ابتداعا أم غير ذلك • ومعنى ذلك أيضا أن (الاصل) اذا كان عقيدة أو جملة عقائد دينية فان أية زيادة عليها

مرفوضة وبحسم ، خاصة فى مجال عقيدتنا الاسلامية• ونلاحظ أن هذه الزيادة الجديدة الطارئة أو هذا التعديل الناشىء يسميه القائمون به (تجديدا) ويسميه أصحاب (الاتباع) انحرافا وزيغا وابتداعا• وهنا أريد أن أقرر الرفض التام لان يسمى التغيير فى مجال العقيدة — تعديلا كان أو زيادة — تجديدا • ان (التجديد) له متطلبات منها أنه يصبح ضرورة ملحة عندما يتهاوى فكر ما من الداخل أو عندما تصيبه شيخوخة من داخله مما يتطلب معه تدخلا سريعا من أجل استئصال مواطن الضعف والمرض فيه بما يضمن له سلامة الاستمرار • ان هذا انما يصلح فى مجال الفكر الذى هو فى النهاية (تصورات بشر) ولكن يستحيل ادخاله فى مجال العقيدة •

فلا يمكن أن يقاس الاسلام على أى دين آخر خاصة على المسيحية ، أو بعبارة أخرى من الخطأ بل من الخطر تصور التجديد فى الاسلام على نحو تصور الاصلاح الدينى الذى قام به مارتن لوثر، ان هناك اختلافا كبيرا بصدد ما يسمى بالتجديد العقائدى بين كل من الاسلام والمسيحية • فاذا كانت المسيحية لم تكتمل عقائدها فى عهد المسيح ، فان الاسلام تحددت أركانه واكتملت فى عهد الرسول ﷺ : « اليوم اكملت لكم دينكم » • (المائدة — ٣) •

يقول الدكتور محمد اقبال (٣) ينبغى أن نوضح الفارق بين

---

(٣) انظر ، تجديد التفكير الدينى ص ١٨٧ ترجمة عباس محمود — القاهرة ١٩٥٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر •

التجديد والاصلاح الدينى فى أوربا ، فان أية محاولة تجديد كى تبقى فى فلك الاسلام ولا تتجاوز حدوده فانها لا ينبغى أن تعدل من أصوله مادام القرآن الكريم له صفة التكيد فيما تناوله من تشريعات وأحكام وأمور تخص البشر فى دينهم ودنياهم « مافرطنا فى الكتاب من شىء » (الانعام — ٨) ومادام النص قد انتهى برسول الله ﷺ (*) .

ان عدم التثبت فى رواية الانجيل أو الاتفاق على رواية واحدة له أتاح ثغرات عديدة فدخلت المسيحية آراء ومعتقدات أصبحت على مر الزمن جزءا من المسيحية ذاتها ، كمبدأ الاعتراف وصكوك الغفران الامر الذى أتاح الفرصة لقيام بعض الاصلاحات التى تحاول التدخل فى صلب العقيدة مثل اصلاح لوثر . أما فى الاسلام فان ختم الرسالة الالهية واعلان اكتمال الدين يعنى أن ليس هناك تطور فى الاسلام ذاته كعقيدة ، ومن ثم فلا مجال لمذهب دينى جديد فى الاسلام يعدل من عقائده وأركانه تعديل البروتستانتية للكاثوليكية . وفى اطار هذه الحقيقة التى انتهينا اليها يمكن أن نحكم — دون تردد — بالمروق على كل الحركات التى جاءت بعد الاسلام وحاولت أن تدخل أدنى تعديل على عقائده أو أصول الدين فيه أو حتى فروعه . وفى ضوء ذلك يمكن استبعاد فرقتى البابية والبهائية اللتين حاولتا نقض مبدأ النبوة وانقطاع الوحى فى الاسلام ، فضلا عن أن كلا منهما قد جاءت بكتاب وأحدثتا تعديلا جوهريا فى أركان الدين كالصلاة والصوم والزكاة والحج (*) .

(*) نتناول فى القسم الثانى من هذه الدراسة بعض معانى التجديد من خلال اكثر من نموذج .

(*) سنعرض فيما بعد لنماذج من الفكر الغريب الذى التبس بالعقيدة فحرف وانحرف .

وهنا نتوقف وقفة حيث يتفق (المتبعون) وسياق ما ذكرنا من أنه لا مجال للتجديد فى العقيدة وان ما يسمى تجديدا فى هذا الصدد ان هو الا تبديل لحق ومحاولة ادخالة فى اطار الباطل ولكن هيهات فلقد « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » •
(الاسراء — ٨١) •

ويزيد (المتبعون) على ذلك أن هناك أدلة سمعية مؤكدة توضح أن الاكتمال هو السمة التى يتميز بها الاسلام كعقيدة ، حيث يقول تعالى : « فماذا بعد الحق الا الضلال » (يونس — ٣٢) •

ويقول جل شأنه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (آل عمران — ٣١) وغير ذلك من الآيات التى تؤكد فضل الاتباع) والاتباع هنا يمثل قمة الايجابية حيث أنه ليس مجرد تقليد وانما (اقتداء) و (تأس) « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (الاحزاب — ٢١) وفى صحيح مسلم أن الرسول (ﷺ) قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » بمعنى أن من أحدث فى الاسلام ماليس منه فى شىء ولم يشهد له أصل من أصوله فهو مردود ولا يلتفت اليه • (٣) •

وفى صحيح مسلم أيضا قول الرسول (ﷺ) : « أما بعد فان خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الامور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » •

ونتفق هنا على أن أية محاولة لاى تعديل من أى نوع فى الاسلام كعقيدة فان ذلك يعد انحرفا ويدخل تحت باب الابتداع •

---

(٣) نلاحظ أن أصحاب (الاتباع) يجعلون من هذا الحديث وغيره قاعدة من القواعد التى يستندون اليها فى ابطال المحدثات والبدع •

ولكن من جانب آخر فان الفكر الاسلامى — ولا يمكن أن تتساوى العقيدة والفكر — لا يعد أى تطور أو تعديل فيه ابتداعا ، فالمحك هنا اذن مختلف ، اذ أنه عندما يكون المحك هو (العقيدة) فان محاولات التطوير ان هى الا (ابتداع) أما اذا كان المحك هو (الفكر) فالامر هنا يسمح بالتجديد والتطوير حيث أن التجدديد هنا يمكن أن يكون (ابداعا) • واذا كان الفكر باعتباره جملة آراء ومذاهب وتصورات قابلة للتأييد أو النقى ، مع كونه يسمح من حيث الموضوع والمنهج لان يدخله التجديد الا أننى استدرك وأقول : ولكن بحدود ووفقا لقواعد وأسس ؟

وهنا قد يتساءل البعض : أليس ثمة تناقض فى هذا القول اذ كيف يجتمع (التجديد — مع ما فيه من طلاقة رؤية وانطلاق تغيير مع (التحديد) أو يسميه البعض (التقييد) ؟ كيف يسمح بالتجديد فى مجال الفكر ثم نحاول أن نصب ذلك التجديد فى قوالب ؟

ان التجديد فى مجال الفكر لا يتعارض مع القواعد والاسس ، فان تلك القواعد بمثابة السياج الذى يتيح للفكر أن يتقدم من خلاله ويحفظه فى الوقت نفسه من (الترنح) ذات اليمين وذات الشمال • وكيف لا تكون هناك ضوابط وقواعد تحكم الفكر وهو ليس كمطلق الفكر وانما هو فكر منتسب الى الاسلام وهو دين الالتزام بالقواعد والاصول • وكلما كان الفكر الاسلامى أكثر التزاما بتلك القواعد والاصول كلما كان أقدر على التطور وعلى الابداع ، اذ أن (الابداع) لا يعنى مطلقا (الانفلات) من ضوابط الفكر الدينى أو مجرد الخروج عليه • ولعلنى أوضح فيما بعد نماذج لفكر اسلامى (تطور) واستمر فتيا من خلال مبدأ (الالتزام) بينما جنح فكر

آخر يزعم الانتماء للاسلام (متحللا) من تلك الاصول التى يعتبرها أغلالا فضل وانحرف (٤) •

وهكذا نقرر أن ليس كل تجديد أو تطوير (ابتداعا) كما أنه ليس مجرد التقليد يعد اتباعا ، وتحديد ذلك راجع فى تصورى الى المحك الذى نقيس كل مسألة وفقا له •

ولعل ذلك التوضيح المسبق للحدود الفاصلة بين الابتداع والاتباع وبيان الادلة السمعية التى يذكرها أهل (الاتباع) يستتبع كل ذلك القاء الضوء على مسيرة الفكر الاسلامى ومحاولة التعرف على تأثير البعدين (الابتداع والاتباع) على تلك المسيرة •

ويتعارف معظم المؤرخين والكتاب والباحثين على اطلاق اسم (الفلسفة الاسلامية) على جوانب الفكر الاسلامى ، ومن هنـــا فان تناولنا لهذين البعدين انما يكون من خلال هذا الفكر الاسلامى فى مساره أو الفلسفة الاسلامية فى مسيرتها ويمكن القول ان أسبق جانب من جوانب الفكر الاسلامى ظهورا هو (علم الكلام) وهو أكثر صور ذلك الفكر التصاقا بالدين خاصة فى طور النشأة • ولعل قيام علم الكلام بمهمة الدفاع عن الدين ومعتقـــداته يفسر لنا سبب ذلك الالتصاق ، اذ أن نقطة الانطلاق كانت من الدين والغاية أيضا كانت هى الدين • ولعل البعدين اللذين نتحدث عنهما (الابتداع والاتباع)

---

(٤) خير تعبير عن الفكر القائم على أصول الدين الملتزم بعقائده والفكر الذى حاول أن ينتزع نفسه من كل أصل دينى الحق تعالى: « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار » (ابراهيم ٢٥ ـ ٢٧) •

تمثلا أول ما تمثل من خلال نشأة علم الكلام بوصفه أول وأهم مظهر من مظاهر الفكر الاسلامى من خلال المؤيدين والمفكرين • وهكذا كانت نشأة علم الكلام كأول جوانب الفكر الاسلامى مؤذنة بذلك الانقسام القائم بين من يتبنون سبيل الاتباع ومن يحاولون التجديد من خلال الفكر الا أنهم فى نظر أولئك ان هم الا مبتدعون ، فماهو مقدار الصواب أو الخطأ فى مذهب كل فريق •

أما المتبعون ، وهنا يمكننا أن نحدد هويتهم فهم الذين يرون أن القرآن بما يحوى كاف ، والسنة النبوية بما أوضحت وهدت فيها الغناء ، معنى ذلك أن أهل الاتباع انما يحددون مفهوم الاتباع الصحيح بأنه اتباع للقرآن الكريم « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » واتباع لسنة رسول الله ﷺ فكرا أو قولا وسلوكا ، وتحقيقا لهدى الرسول الكريم (ﷺ) : تركت فيكم ما ان تمسكتم به فلن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » • هذا هو السبيل الصحيح فى الاتباع حيث لا فكر الا من خلال أقوال الرسول الكريم ﷺ ولا تفكر الا من خلال آيات القرآن العظيم • وهؤلاء (المتبعون) بطبيعة الحال يرفضون علم الكلام ويذمون المشتغلين به (٥) •

ان القرآن وان عنى فى مواضع كثيرة ببطلان ما كان عليه العرب من عقائد غير صحيحة على اختلاف دياناتهم ومللهم ، فقد نهى مع هذا عن الفرقة فى الدين ، وعن الجدل مع المخالفين الا بالحسنى وذلك استمالة منه للقلوب وحرصا على الالفة والوحدة •

---

(٥) انظر ، د• النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ط١ ، د• صبحى : فى علم الكلام ، د• أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام ، د• بدوى : مذاهب الاسلاميين • ط١ ، مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية •

يقول تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى — ١٣) .

ويقول جل شأنه : « وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » (الحج — ٦٨ / ٦٩) . وهكذا مضى زمن الرسول ﷺ على رأى واحد وعقيدة واحدة ، هى ما جاء فى كتاب الله « لانهم أدركوا زمان الوحى وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والاوهام » (٦) .

ويذكر المقريزى أنه لم يرو قط من طريق صحيح أو سقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شىء مما وصف الرب سبحانه نفسه الكريمة فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد ﷺ ، بل كلهم فهموا ذلك وسكتوا عن الكلام فى الصفات (٧) .

ويذكر أبو الحسين الملطى (ت ٣٧٧هـ) أن من أصول أهل السنة الايمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والخصومات والجدال فى الدين (٨) .

ولقد روى عن الامام مالك (ت ١٧٩هـ) أنه قال : اياكم وأهل البدع ، قيل يا أبا عبد الله ومن هم أهل البدع : قال أهل البدع الذين

---

(٦) طاش كبرى زاده (مفتاح السعادة) ، نقلا عن مصطفى عبد الرازق (تمهيد) ص ٢٧٢ القاهرة ١٩٤٤ .

(٧) المقريزى : الخطط المقريزية جـ٤ ص ١٨٩ طبعة مصر ١٣٢٦هـ .

(٨) الملطى : التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص ١٢ الاستانة ١٦٢٦ .

يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم باحسان •

وروى عن أبى حنيفه (ت ١٥٠هـ) أنه قال : لعن الله عمرو بن عبيد فانه فتح للناس الطريق الى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام •

وكان سفيان الثورى (ت ١٦١هـ) ينهى أصحابه عن مجالسة المتكلمين ويقول : عليكم بالاثر واياكم والكلام فى ذات الله •

ويقول جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) الذى له رسائل فى رد مذهب القدرية والخوارج والغلاة من الروافض (٩) : ان الله تعالى أراد بنا شيئا ، وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا (١٠) •

ويفسر الامام جلال الدين السيوطى (ت ٩١٤هـ) تسمية علم الكلام بهذا الاسم بأن الكلام ضد السكوت وأن المتكلمين قد تكلموا فى المسائل الاعتقادية حيث كان ينبغى الصمت وعدم الخوض فيها (١١) •

تلك كانت حجج أصحاب (الاتباع) الذين رموا كل من (تكلم) بالابتداع ، أو بعبارة أخرى فان أولئك (المتبعين) ذهبوا الى أنهم (اتبعوا) عندما ساروا على الطريق والتزموا الاصول والقواعد ،

---

(٩) البياض : اشارات المرام ص ٣٤ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٦٣ •

(١٠) انظر ، الشهر ستانى : الملل والنحل جـ١ ص ١٤٧ •

(١١) السيوطى : صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ص ٥٧ نشرة د• النشار •

أما أولئك (المبتدعون) فلم يفعلوا ذلك الا لانهم (حادوا) عن الطريق و (انحرفوا) عن الاصول .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل جاوز هؤلاء المتكلمون — الاوائل على وجه الخصوص — سبيل الاسلام عندما حاولوا أن (يتعقلوا) بعض مسائل الدين ؟ وهل فارقوا الجماعة فى ذلك ؟

الجواب يأتى من أولئك الذين اتهموا بالابتداع والمروق عن الجماعة: لا، فلستم أولى بالاسلام منا ولا أنتم أشد حرصا على التمسك بأصوله والالتزام بقواعده وعقائده .

وهنا أيضا نتوقف لنحكم بانصاف بين الفريقين وأيهما على الصواب وأيهما على الخطأ ولا نقول أيهما على الحق وأيهما على الباطل . نحن هنا فى رحاب الفكر ، وهو وان كان فكرا متصلا بالعقيدة قائما على أساس منها الا أن ذلك لا يسوغ لاحد أن يجعل معايير التقويم — كما هو فى العقيدة — ايمان أو كفر ، بل الامر هنا مختلف تماما اذ ليس مجال العقيدة كمجال الفكر حتى وان كان فكرا دينيا ، تلك واحدة .

أما الثانية فهى (من) الذى يمكنه أن يحدد عناصر هذا الابتداع فى الفكر ومن ثم يحكم عليه ، و (ما) هى أصلا تلك العناصر التى وفقا لها يمكن القول بأن هناك (ابتداعا) فى الفكر .

ولا أصادر على مسألة ما اذا قلت ان الطامة الكبرى فى فكرنا الاسلامى عبر تاريخه الطويل انما تصدر عن هذين التساؤلين المطروحين حيث عدم وضوح الرؤية وعدم تحديد الاختصاص ، فاختلطت الامور ببعضها وألبس الفكر ثوب العقيدة — وليس الفكر

كالعقيدة كما سبق القول — وصار معيار التقويم فيهما واحدا ، ولا ينبغى أن يكون واحدا • فكيف يمكن أن يكون مجرد اختلاف شخص ما معى حول مسألة ما من مسائل الرأى سببا فى رمية بالفكر والالحاد ، كيف يكون الاختلاف فى الرأى خروجا من أحد الاطراف عن طريق الاسلام •• من الذى يملك الحق فى هذا الحكم ؟

وليس من قبيل المصادرة القول بأن الفكر الاسلامى منذ بـدايته وحتى يومنا هذا وما أصابه من خلط وتشويش انما يسأل عن ذلك كله عدم وضوح الرؤية والتداخل بين الاختصاصات • فما أيسر أن يتخلص مذهب من آخر فى مجال الفكر الاسلامى برميه بالكفرووصمه بالخروج ومفارقة الجماعة ، كيف يكون ذلك والاساس واحد وهو الاسلام والغاية واحدة — أو المفروض أن تكون واحدة — وهى نصرة هذا الدين فكرا واعتقادا •

ومن جهة أخرى لا ينبغى أن يحكم بالابتداع على أصحاب فكر بصفة عامة اذ الميل الى التعميم ليس من دواعى الحكم الموضوعى على أمر من الامور أو شخص من الاشخاص • ومنوجهة نظرى فى هذا الصدد فانه بدل أن يكون الحكم بالابتداع وترك سبيل الامة (جامعا) ينبغى أن ينظر أولا فى (المقاصد) ووفقا لسلامة المقصد يكون الحكم ان كان حقا فحق وان كان باطلا فباطل•

والحق أن يقال ان علم الكلام — بالرغم من سلبيات فيه — قام بدور رائد لا ينكر فى مجال تأكيد دعائم العقيدة عقلا ومحـاولة استئصال شأفة كل باغ أو معتد على هذه العقـيدة من أصحاب الديانات والملل الاخرى سواء منها السماوى أو غير السماوى • واذا كان بعض المتكلمين قد حاد قليلا أو كثيرا عن الطريق فعلى هؤلاء يقع وزرهم ولا يمكن أن يحتمل الاخرون عنهم ذلك الوزر •

وهنا ينبرى الموصومون بالابتداع (المتكلمون) للدفاع عن أنفسهم بانهم أبـــدا لم يحيدوا عن (الطـــريق) ولا ضلوا السبيل الى (الهدف) ، انهم مؤمنون موحدون شغلتهم قضية نصرة الدين عن طريق (العقل) ضد الهجمات المنظمة التى يشنها مشركون من كل نوع • ويلتمس المتكلمون أصولا وجذورا لهم من خلال العقيدة الاسلامية نفسها ومن بعض التابعين الابرار ، اذ لا تناقض بين معطيات الدين (نقلا) ومعطيات الدين (عقلا) • فالملاحظ « أن الدين — أى دين — لابد أن ينتقل المؤمنون به الى مرحلة ثانية فيها بحث ونظر وصياغة فلسفية للعقائد الدينية ، قد يرجع ذلك الى حب استطلاع طبيعى فى البشر ، فالناس جميعا قد وهبوا الاستعداد للنظر العقلى والتفكير الفلسفى (وكان الانسان أكثر شىء جدلا) غير أن ظروفا موضوعية وأحداثا واقعية تتصل باحتكاك المسلمين بأصحاب ديانات أخرى تسلح القوامون عليها باسلحة الجدل والفلسفة قد أكرهت فريقا من المسلمين على أن يدافعوا عن دينهم فنشأ عن ذلك علم الكلام » (١٢) •

ولقد وجد علم الكلام — شأنه فى ذلك شأن سائر العـــلوم الاسلامية — منطلقا من القرآن منهاجا وموضوعا ، فمنهجيا لايتعارض النظر مع الايمان ، فلقد حث القرآن المسلمين على أن ينروا فى ملكوت السموات والارض وأن يتفكروا وأن يتأملوا ويتدبروا بينما ذم القرآن أولئك الذين لا يفكرون ولا يعقلون • ويحاول المسلمون أن يتخذوا من أنبيائهم أسوة ، فلقد جاء ايمان أبى الانبياء ابراهيم بعد طول نظر عقلى حين رفض أن يعبد ما يأفل (١٣) ومن ثم جاء

---

(١٢) د• صبحى : فى علم الكلام ص ١٠ ـ ١٣ •
(١٣) انظر الايات من سورة الانعام ٧٥ ـ ٧٩ •